

« بعض المضامين الحضارية للجهاد في الإسلام »

الدكتور موسى رزق ربحان
رئيس قسم البلاغة والأدب والنقد
بكلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كم صاحت بي الأيام من أغوار الدروب ، وشافهتني الليالي عبر أسوار الخطوب
يا عابد الرحمن : أين الوفاء بعهد الشهيد ؟؟ وفي جنبات النفس ترددت
أصداء هذا السؤال : أين الوفاء بعهد الشهيد ؟؟ فكان هذا اللقاء وأرجو أن
يكون لنا جميعا شرف البحث عن بعض الجواب .

ونحن نحاول الإجابة عن هذا السؤال المطروح لابد لنا من مقايسة معطيات
الزمن ومقومات الوجود لكل أمة من الأمم . ومن أجل ذلك لابد من تحديد نقطة
ارتكاز تدور حولها عجلة الزمن . وإذا اعتبرنا الإسلام نقطة هذا الارتكاز ،
وسيرنا معطيات ما قبل الإسلام ، ومعطيات الإسلام وهو محور الحياة وروح
الوجود ، ومعطيات الأمم والشعوب بعيدا عن روح الإسلام وهديه ، فماذا نجد ؟

يقول العلماء إن الحضارة محصلة طبيعية لمعادلة قوامها الإنسان والتراب والزمن
ومركب روحي لا يتم التفاعل بين العناصر السابقة إلا بوجوده ؟ فماذا عسى أن
يكون ذلك المركب الروحي ؟ ولنعد إلى نقطة الارتكاز ألا وهى الإسلام ،
ولنراجع سجل الزمن ومعطياته الحضارية قبل الإسلام . نجد الإنسان هو الإنسان
والتراب هو التراب والزمن هو الزمن .

العرب قبل الإسلام هم سكان هذه الجزيرة العربية المترامية الأطراف قبائل
إما متبدية أو متحضرة متعادلة متباغضة يتخطف الناس من حولهم ، بل تخطف
الناس بلادهم ، وتوزع القياصرة والأكاسرة والأحباش السيادة فيما بينهم ، وغدا
ملوك العرب من المناذرة فى الحيرة عملاء للفرس ، والغساسنة فى الشام عملاء للروم .

ولنا فى القولة المنسوبة إلى عبد المطلب فى عام الفيل « المال مالى وللبيت رب
يحميه » عبرة وأى عبرة ، فالأحباش جاءوا بجيوشهم وفيلهم لغزو العرب فى عقر
دارهم ، وفى نيتهم هدم الكعبة كما هو معروف لنا جميعا ، والكعبة أقدس مكان
على وجه الأرض وكانت فى ذلك الوقت مستودعا لأصنام العرب وأربابهم من دون
الله فلم نسمع أن أحدا من فرسان العرب تقدم للدفاع عن ذلك البيت واكتفوا بأن
للبيت ربا يحميه أما هم فقد تخصصوا فى سفك دماءهم . وهذه القولة تذكرنا بمقالة
بنى إسرائيل حينما دعوا لقتال العمالة بفلسطين فقالوا لنبيهم : « اذهب أنت وربك
فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » .

ومن حيث العطاء الحضاري خلف لنا أباؤنا وأجدادنا ما بين سبع قصائد من الشعر أو عشر ما بين محمول ومكذوب ومنحول ، وهب أنها كلها صحيحة . فتعدادها لا يتعدى الألف بيت من الشعر ولو قدرنا عمر العرب الحضاري في هذه الجزيرة بألف سنة لكان عطاء الآباء والأجداد بيت شعر واحد في العام الواحد .

وإذا عدنا إلى الإسلام نقطة الارتكاز فماذا نجد ؟ نجد في العام الثاني والتسعين للهجرة النبوية الشريفة علم التوحيد يرفرف فوق قارات الدنيا الثلاث المعروفة إذ ذاك ، ونجد الإسلام قد صاح لا كسري لا قيصر : ولم ينتصف القرن الهجري الثاني إلا وأمة الإسلام قد تمثلت كل حضارة العالم وهضمتها وأصبحت قيمة عليها ، بل وأضافت إلى الدين علمًا علوما جديدة لم تكن معروفة للعالم من قبل . فكيف تم ذلك ؟ .

هل تم كل ذلك عفو الخاطر ؟ هل تم ذلك دون وعى وتخطيط ؟ وتربية ؟ وما أحسب عاقلا يقول إن ذلك قد تم عفو الخاطر ودون ما وعى وتربية وتخطيط .

وأحسب أحدا يتعجل الإجابة ويقول « الإسلام هو العامل الجديد وكفى » . فالإسلام وكما هو معروف عقيدة وعمل : « قل آمنت بالله ثم استقم » . « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » .

وفي إطار العقيدة والعمل وجدت الجماعة المؤمنة الحياة الواعية ناهضة عاملة

متحركة ، غير أنها ألقت نفسها محاطة بأسوار عالية وخلف هذه الأسوار وديان
سحيقة مزروعة بأشواك حادة ، وفي أبراج هذه الأسوار ، وحواف هذه الوديان
وقف عتاة البشر وبغاة الإنس ، وجبابرة الأرض وفي أيمنهم وشمائلهم قوى السلطان
والمال وقفوا في عناد وكبرياء يحاربون هذه الجماعة المؤمنة ويصدون عن سبيل الله .

وهنا يتساءل المرء كيف يمكن لمثل هذه الجماعة القليلة العدد الضعيفة العدد ،
أن تنفلت أو تتحرك أو تنجو بنفسها فضلا عن أن تصنع مدينة وحضارة يكتب
لها البقاء والخلود كرمز حي وعنوان بارز على صلاح هذا الدين للحياة ، وقدرته
على إصلاح هذا الوجود ؟ .

والعجيب في الأمر أن كل حضارة الإسلام إنما ولدت ونشأت في مثل هذه
الظروف البالغة في العنف والقسوة ، وتاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي
والحضاري يصدق ذلك كله ويبرهن عليه .

ودراسة الثغور الإسلامية في الأندلس وصقلية وفي الهند وفي الثغور الشرقية ،
والشامية ، وفي الأناضول ، وغيرها من الثغور الإسلامية الأخرى تعد أوضح
برهان على ما نذهب إليه فقد كانت هذه الثغور مراکز حضارية متقدمة رغم
الاحتراب المحتدم والاقتتال الدائب . فكيف تحقق ذلك كله ؟ .

والحقيقة الماثلة لنا من خلال استقراء النصوص الكريمة من القرآن الكريم

والسنة الشريفة وسير أحداث التاريخ الإسلامي هو أن السبب في ذلك يكمن في مضامين الجهاد ، والقيام بعبء هذا الغرض على الوجه الأكمل .

أما ماهية مضامين الجهاد فهذه كثيرة ومتعددة ، منها الجانب العقيدى والتعليمي والتربوي ، والاجتماعي ، والإنساني ، والصناعي والأدبي ، ولكن كل هذه المضامين المتعددة لا تنفصل عن بعضها ، ولا تتعارض في سيرها ، وجميعها يحقق غاية واحدة بل يربط الإسلام بين هذه المضامين . ففي الحديث الشريف : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » .

والجهاد وكما هو معلوم بذل الوسع والطاقة من قول وعلم وعمل ومال ونفس في سبيل الله . وكأن الإسلام الذي هو رأس الأمر لا يمكن له ولا أصحابه بغير الجهاد ، وكأن الصلاة التي هي عمود الإسلام لن تقام في الأرض بغير القيام بعبء الجهاد ، وعلى هذا يكون الجهاد بمثابة الدرع الواقية للإسلام وأهله .

فإن الله سبحانه وتعالى يقول « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحییکم » .

والاستجابة لله وللرسول في هذا المقام إنما تتمثل في الجهاد ، فالجهاد هو الاستجابة الحقيقية والعملية ، ومع هذه الاستجابة تكون الحياة الحرة الكريمة العزيزة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة . فالشهادة إحدى الحسينين ، وهى السبيل إلى هذه الحياة . قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

وقال تعالى « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » ، فإذا توفر للمؤمن مثل هذا الاعتقاد السليم أمكنه أن يتخطى الأسوار العالية ويحتاز الوديان السحيقة ، ويطيح في مسيرته الراشدة ، نحو الحياة الخالدة بكل العتاة والبغاة والطواغيت ، ويقطع وديان التخلف العميقة في مدة وجيزة من الزمن .

إذن التربية الإعتقادية هي أول المضامين الحضارية ، وهي ضرورة حتمية لازمة للبناء والجهاد . وهذه التربية هي التي تصنع الانسان والأسرة والجماعة . والإيمان الكامل هو الركيزة الأولى في صرح هذه التربية . ففي الحديث الشريف : « إنا لا نستعين بمشرك ، وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

وكل عمل ما لم يكن عليه أمرنا فهو رد . فلا يقبل من إنسان أى عمل من غير إيمان ولا يقبل إذا لم يكن قد تم وفق شريعة الإسلام فلا جهاد إذن بدون إسلام وبدون إيمان وبدون نية خالصة لوجه الله تعالى .

وفي السنة الشريفة « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » وفي القرآن الكريم « وجاهدوا في الله حق جهاده » .

وإنما يكون ذلك الجهاد في ذات الله بأن يعرف الإنسان ربه خالقه ورازقه الذي بيده موته وحياته وبعثه وطاعته لربه سبحانه وتعالى ، امتثال أوامره واجتناب محارمه ونواهيه ، وكذلك طاعته لنبيه ورسوله محمد ﷺ ، ومفارقته للشيطان عدوه ومخالفته لأهواء النفس ، فأهواء النفس أو ثنان .

ومن هنا كانت عناية الإسلام الحنيف بالتربية الاعتقادية ، ومن هنا كان حرص الإسلام على بث التعليم ونشره بين المسلمين .

ولأمر أرواده الله سبحانه أن كانت الآية الكريمة « إقرأ باسم ربك الذي خلق » فاتحة الآيات القرآنية نزولا ولحكمة سامية كان قوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

وفي الحديث الشريف « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » فالعلم أس الجهاد بل إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ويروي عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : أفضل الجهاد من بنى مسجدا يعلم فيه القرآن والفقه والسنة ، ويروي عن علي الأزدى قوله : « أردت الجهاد فقال لي ابن عباس ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد تأتي مسجدا فتقرئ فيه القرآن وتعلم فيه الفقه » .

وفي الأثر الشريف « من خرج يلتمس علما فهو في سبيل الله حتى يرجع » . فالعلم النافع من سبيل الله ، وتعليم القرآن الكريم والسنة الشريفة والفقه هو تنشئة شباب الإسلام تنشئة إسلامية صحيحة ، وتعليم الناس عقائد الإسلام وفرائضه وشرائعه ، وتبيان للحلال من الحرام . فالعلم جهاد وإعداد للحياة ، وتزكية للنفوس ، وإعمار للقلوب بذكر الله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وبذكر الله تعالى تزال الغشاوات عن الأعين والقلوب والابصار .

فإذا ما استقام للمسلم هذه التربية الإعتقادية وهو في دور التكوين تكونت الجماعة المؤمنة المجاهدة ، وتحقق فيهم قول الرسول ﷺ « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعي بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . ويصبح قول المصطفى ﷺ « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمي والهر » يصبح هذا القول حقيقة واقعة ، كما يصبح المؤمن للمؤمن أو المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، واقعا أيضا . وعلى ضوء ذلك نفهم قول المصطفى ﷺ لصحابته الغزاة . « لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ولا أنفقتهم من نفقة ، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم » .

وما ذلك إلا أنهم قد أصبحوا أمة واحدة من دون الناس اتحد سلمها واتحد حربيها وهذه الامة الموحدة العواطف والمشاعر والعقائد قد أخلصت إسلامها وإيمانها لله سبحانه ، ونصحت لله ولدينه ولرسوله ، وما حبسهم عن اللحاق بأخوانهم الغزاة إلا العذر والله تعالى هو الذي عذرهم وقبل عذرهم .

ومن مضامين الجهاد الإعتقادية والحضارية أيضا تحديد الغاية ووضوح الهدف ، ومعرفة الوسيلة .

فالجهاد في الإسلام مشروع لغايات نبيلة ، وأهداف سامية حددها الإسلام بسبيل الله ، وسبيل الله هو صراطه المستقيم الذي رسمه لعباده ليسيروا عليه في حياتهم الخاصة والعامة . في السلم والحرب على حد سواء . والإسلام وهو يحدد

الغاية من الجهاد بأن يكون الدين كله لله . وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وحتى لا تكون في الأرض فتنة نجده لا يفصل عرى هذه الغايات والأهداف عن مصلحة الإنسان خليفة الله في أرضه . فالجهاد إنما يكون من أجل الحق والخير والمبادئ والمثل ، من أجل تحقيق كرامة الإنسان ، وتمكينه من حرية الاختيار ، وحرية الإرادة ، فلا إكراه في الدين ، ولا ظلم ولا عدوان . بل إن القرآن يربي أتباعه على مبادئ العزة والكرامة وإباء الضيم . قال تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .

وقال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعمدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وقال تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا » (سورة النساء ٧٦) .

إذن الإسلام يربط بين غايات الجهاد وأهدافه ، فالجهاد في سبيل الله وحده وهو لصالح الإنسان ، فليس الجهاد في سبيل دعوى عصبية أو جاهلية أو قومية عرقية ، وليس من أجل أهواء النفس وشهواتها في الغلبة والملك والجاه والسلطان ، بل الجهاد ضد ذلك كله .

قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » .

بل ربنا سبحانه وتعالى يتوعد المؤمنين إن ركنوا إلى الدنيا ومغانمها ، وأقعدتهم دنياهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى قال تعالى : « قل إن كان آبائكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة ٢٤) .

ولم نجد قبل الإسلام من قاتل من أجل تلك المثل والمبادئ ولا من أجل المستضعفين والمستذلين من الرجال والنساء والولدان . فلم يكن لمثل هؤلاء أى وزن في الحياة ، فلا حرية لهم ولا حرمة ، ولا كرامة كي تنفق الأموال وتزهق الأرواح وتجيش الجيوش من أجلهم .

أما المسلمون فإنهم يجاهدون وهم على علم ودراية بحقوق الله عليهم وحقوق الناس عليهم ، فقد ربوا ودربوا على ذلك ، فهم بايعوا الله ورسوله على الموت في سبيله . قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ذلك هو الفوز العظيم » (التوبة ١١١) .

فالإسلام يربط ربطا محكما بين غايات الجهاد العقيدية ومضامينه الإنسانية والاجتماعية ، وذلك عنوان الحضارة الحقة التي توازن بين متطلبات الروح والجسد .

فهؤلاء الضعفاء الذين فرض الجهاد من أجل حياتهم ، ومن أجل تمكينهم من حرية إرادتهم واختيار عقيدتهم وتمكينهم من إمكان عبادتهم لربهم في أمن وسلام نراه يعفيهم من تكاليف الجهاد المادية والعملية . قال تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ولرسوله ما على المحسنين من سبيل » (التوبة ٩٢) .

وبينا يوجب الإسلام القتال على الأقوياء من المسلمين من أجل هؤلاء العجزة الضعفة ، ويتهدد كل من يتخلف عن الجهاد بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة نراه يجعل لمثل هؤلاء الفقراء والمساكين والعبيد والغارمين وفي الرقاب وأبناء السبيل نصيبا من الصدقات والأئفال والفىء والمغانم .

هذا هو الإسلام رحمة للعالمين في حربه وسلامه ، وهذه هي بعض غايات الجهاد ومضامينه الحضارية في مختلف الظروف والأحوال عسرا ويسرا .

فالإسلام وهو يحث على الجهاد ويحض على القتال لا ينسى المرضى ولا العجزة ولا الضعفاء ، ولا يتخلى عنهم ولا عن من يقوم على أمرهم فقد أسهم رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان وقد أبقاه إلى جنب زوجته بنت المصطفى عليه السلام إذ كانت مريضة ، وقد روى أن بعض الصحابييات كن يصحبن الرسول ﷺ في غزواته فيخلفن الجيوش في رحالهم يحرسن الأمتعة ويصنعن الطعام ويحملن الماء ، ويقمن على الزمى ، وينقلن القتلى ، ويداوين الجرحى ، ويقاتلن إن لزم الأمر . وقد

نتج عن ذلك أن أصبح للجيش الإسلامية وحدات طبية ترافقها في غزواتها ،
عرفت فيما بعد بالمستشفيات المتنقلة وبذلك يكون الإسلام قد أهدى إلى البشرية
سبقا إنسانيا ومنحة لم تكن معروفة من قبل .

ويأتي رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فيسأله نبي الرحمة : « أحي
والداك : قال : نعم . قال : ففيها جاهد » .

وواضح أن الرسول ﷺ يعتبر رعاية الوالدين العاجزين ، والقيام على شئونهما
جهادا . لفتات إنسانية واجتماعية يشرعها المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام وهو
يواجه الشرك والوثنية ، واليهودية ، والنصرانية . وما ذلك إلا لاتحاد الغاية
والهدف وإن اختلفت الوسائل . فالجهاد لمصلحة الإنسان الضعيف ، ولهذا لا ينبغي
أن يضيق ذلك الإنسان الضعيف في رحمة الصراع باسم الجهاد أو القتال .

ورجل — يأتي النبي ﷺ وقد اكتتب معه في غزوة فيقول امرأتي تريد
الحج . فيأذن له ﷺ في أن يحج مع زوجه ويدع الغزاة . وما كان أيسر عليه
ﷺ أن يقول له دع زوجك تؤجل حجها فالجهاد مقدم . لم يقل هذا ولا ذاك لأن
الحج جهاد ورعاية الأهل وصيانة الحرمات ، وحفظ الأعراس جهاد ، بل ذلك
من غايات الجهاد وأهدافه ومبرراته . ومن هنا كان من قتل دون عرضه أو ماله أو
نفسه فهو شهيد .

وعندما يسأل عليه الصلاة والسلام « على النساء حج » فيجيب : « نعم جهاد
لا قتال فيه ، الحج والعمرة أو جهاد كن الحج ، أو جهاد الكبير الحج » .

هذه هي الحضارة التي تكرم الإنسان في حال ضعفه وفي حال قوته في حال فقره وغناه ، تطلب منه بعض ما في وسعه ، وتعطيه كل ما يحتاج فلا تحرمه من أجر أو غنيمة ، ولا تشعره بنقص أو غبن .

وهذه المضامين الإنسانية والمبادئ الحضارية ليست وقفاً على المسلمين وحدهم بل تتعدى إلى أعداء الإسلام وأعداء المسلمين . فالنهي عن قتل الولدان والصبيان والنساء ، والمسلمين وغير المحاربين كثير وصريح يعرفه من له أدنىء الملم بتاريخنا الحربي ، بل نرى الاسلام يوصى بنقل الأيتام والأرامل والعجزة إلى دار الإسلام ، كما يوجب رعايتهم وإعالتهم ، وصيانة أعراضهم عن طريق ملك اليمين ، ويوجب حسن معاملتهم وطيب معاشرتهم كي يعرفوا رحمة الاسلام بهم فيدخلوا فيه إن شاء الله لهم الهداية .

وهذه المبادئ والمثل والتشريعات لم تكن من قبيل الدعاية الحربية التي تمارسها الأمم غير الراشدة ، وإنما هذه التشريعات كانت مقترنة بالتطبيق العملي دائماً وأبداً . وهذه المضامين الحضارية والإنسانية والاجتماعية والاعتقادية كانت ماثلة في نفوس الغزاة المجاهدين في سبيل الله . وقد عبر عن هذه المبررات كل من ربيع بن عامر وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبه عندما سألهم رستم قائد جيوش كسري غداة موقعة القادسية واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية . ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب . الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ،

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله منا قبلناه منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر .

الاسلام الخفيف وهو يغرس هذه التعاليم في النفوس المؤمنة ، ويزرعها في القلوب التي استنارت بنور الله ، يندب المساميين إلى الاخذ بجميع أسباب الظفر المادية ، ويستجيب المؤمنون لذلك فيعدون كل ما في وسعهم ، وهم يعلمون علم اليقين . « وما النصر إلا من عند الله . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

وهم يفعلون ذلك لأنهم أمروا به ، والأمر لهم بذلك هو الحكيم الخبير الذي وعدهم بالنصر ، « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم » فالقوة المادية من حيث السلاح والكراع والعدد والقلاع والحصون هي الجالبة للنصر في اعتقاد أعداء الاسلام لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فإذا جمع لهم المسلمون ما يفوق جمعهم من سلاح وعتاد ورجال كان ذلك أدعي إلى إلقاء الرعب في قلوب الأعداء .

قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » .

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا » .

وقال تعالى : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » النساء ١٠٢ .

إذن الإسلام يأمر بالإعداد للجهاد والحرب والقتال بكل ما في وسع المسلمين كما يأمر برباط الخيل ، وأخذ الحذر ، وعدم ترك السلاح حتى في الصلاة . فالإعداد للجهاد واجب بل هو جهاد أو من فروض الجهاد وهذا الإعداد ليس له حدود لأنه منوط بالاستطاعة ، والاستطاعة لا حدود لها ، لأنها متطورة على مدى الأعوام . فالأصل المرعي : هو الأخذ بمبدأ الإعداد والحذر والتعبئة . فقد صح عن الرسول ﷺ قوله : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » .

وفي الحديث الشريف . ألا إن القوة الرمي ... ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بسهمه . وفي الحديث .. من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصى أو كما قال . وصح عنه قوله ﷺ وقد مر على نفر ينتضلون : إرموا بني إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا .

وجاء في الحديث الشريف إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ، ومنبله . وقوله ﷺ وارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا ، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو قال كفرها أو كما قال .

فهذه الآثار وأمثالها تضح أيدينا على منشأ الصناعة الحربية في الإسلام ، ولا يجهل أحد اليوم ما لصناعة السلاح والعتاد الحربي من أثر كبير في حياة الأمم والشعوب . فالرمي بالسهم تطور عند المسلمين إلى اختراع البارود ، واكتشاف القوة القاذفة له ، وما إلى ذلك من اختراع البندقية والمدفع والطريدات ، وقد تم ذلك على أيدي علماء الإسلام من أهل الأندلس ، واستعملوه في حروبهم وعنهم أخذ النصارى هذه الأسلحة وطوروها إلى ما هي عليه اليوم لمحاربة الإسلام والمسلمين بسلاحهم .

ورباط الخيل هو الذي تطور إلى ركوب متن الريح واختراع الطائرة وكان العالم الأندلسي عباس بن فرناس هو رائد صناعة الطيران في العالم ، والدروع هي التي تطورت إلى السلاح المدرع الحديث ، وقد صنع المسلمون الدبابة واستخدموها في فتح الأندلس .

ولا يخفى على أحد مدى إهتمام المسلمين بالخيـل . فقد كانت أهم وأسرع وسائل النقل الحربي في ذلك الوقت . وقد أشار القرآن الكريم إلى الخيل في أكثر من موضع . قال تعالى : « والعاديات ضبحا فالمواريث قدحا ، فالمنغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا .

وقال تعالى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

والاحاديث في الخيل كثيرة . فالخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ،

والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة ، وروي عن النبي ﷺ : إن جبريل عاتبني في الخيل .

ونحن لا نريد أن نقف عند الماضي فقط ، ولا نريد أن نقول إن ذلك كان وانتهى .

إن الله سبحانه وتعالى عندما يعلي من قدر الخيل ويخلدها في كتابه إنما يرشدنا إلى الأخذ بمبدأ التسليح المناسب لطبيعة العصر وظروف الحياة ، فإذا كان جبريل يعاتب الرسول ﷺ في الخيل ، فهل يتصور أحد أن الله لا يعاتبنا أو قل يحاسبنا - في كل صنوف السلاح المتطور الحديث من مدافع وطائرات وصواريخ وغواصات وقنابل نووية وهيدروجينية وما إلى ذلك .

إن العلم الحديث يقيس قوة الآلات المتحركة بقوة الحصان فيقولون مثلاً الماكينة الفلانية قوتها كذا حصاناً . ولا زال الناس يطلقون على سلاح الطيران فورسان الجو .

وقد أرشد الرسول ﷺ المسلمين منذ وقت مبكر إلى تعلم الصناعة الحربية . فقد روى أصحاب الغزوات والسير أن ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم لم يشهدوا حصار الطائف لأن الرسول ﷺ كان قد وجههم إلى العقبة لتعلم صناعة المنجنيق ، وقد تطور هذا السلاح الفتاك على أيدي المسلمين واستخدموه في حروبهم وظل من أشد أنواع الأسلحة المستعملة في هدم القلاع والحصون حتى اخترعت المدفعية الثقيلة .

ومع ذلك الاهتمام الكبير بمبدأ القوة إلا أن الإسلام جعلها في خدمة الحق دائماً ، ودرعا واقية لأهل العدل والتوحيد ، ووسيلة لصيانة الحرمات والاعراض ، وحماية لدين الله ، وشرائعه . فمضامين الجهاد حضارية ذات عرى متماسكة ، كل شيء يستخدم من أجل الحق والخير والعدل ، ومن أجل ذلك كان يعطي مردودا حضاريا خالدا ذا نفع عام ولنأخذ لذلك مثالا مفهوم الرباط في الإسلام وما نتج عنه . ولنقرأ قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا صبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فالرباط من ربط النفس على الأمر وتشيتها عليه وهو الثبوت والزموم ومنه رباط الخيل من خمس فما فوقها ، ورباط الرجل نفسه ، والرباط شعبة من شعب الجهاد ، وبقدر خوف أهل ذلك الشجر وتحرزهم من عدوهم يكون كثرة ثوابهم .

وفي الحديث الشريف « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه الذي كان يعمل به ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان » .

وللرباط فرائض منها النية والزاد الحلال والعدة والمعدل ، وسنة المرباط التقليد أى حمل السلاح كما أن السنة للمعتكف الصيام . وللرباط غايات منها حقن دماء المسلمين كما أن الجهاد فرض لسفك دم المشركين .

فما الذي نتج عن الأخذ بمبدأ الرباط ؟ يكفي أن نشير إلى أن أهم المدن الحضارية في الإسلام والتي حملت مشاعل النور والخير والعرفان للناس جميعا - كانت

كلها في مبدأ نشأتها أربطة ، وميادين للجند والعسكر ، خذوا مثلاً مدينة الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان والرباط بالمغرب ومجريط بالأندلس .

ويكفي أن نعلم أن دولاً عظيمة في التاريخ كان السبب في قيامها الأخذ بنظام الرباط كما هو الحال بالنسبة لدولة المرابطين ، والتي كان لها الفضل الكبير في نشر الإسلام في أجزاء كبيرة من القارة الإفريقية كما كان لهم شرف الدفاع عن الإسلام وأهله في الأندلس ، ووقوفهم كالطود الشامخ في وجه الزحف النصراني .

أما كيف فهم المسلمون فرض الرباط ، وكيف طبقوه . وما الآثار الحضارية التي ترتبت على ذلك .

فالواضح لنا أن : العالم الكبير كان غالباً ما يتوج عمله ، ويزكي نفسه بالمرابطة في سبيل الله في ثغر قصي مخوف ، يأتي إلى ذلك الثغر فيتمخذه له مقراً ، يحرس ويراقب تحركات الأعداء ، ويتعبد الله تعالى ، فيسمع به طلاب العلم فيأتون إليه لأخذ العلم عنه ، فيختطون لهم مسجداً يعبدون الله فيه ، ويحضرون على شيخهم دروساً في فقه الجهاد ، ثم يشرعون في بناء منازل لأنفسهم ، ويبنون قلعة لهم يلجأون إليها وقت الخطر ، وينطلقون يعملون بأيديهم ليحصلوا على قوت يومهم ، وبينما هم يفعلون ذلك يأخذون في درس المنطقة ، وما بها من نبات قد يصلح للطعام أو العلاج ، وما بها من أشجار قد تصلح لصنع القسي ، وما بها من معادن قد تصلح لصنع السلاح كالحديد وما إليه من ذهب وفضة ، وكانوا ينقبون عن الماء الصالح للشرب والزراعة ،

يفعلون كل ذلك وهم يتابعون التدريب على حمل السلاح وانتظار السوائف والشواطئ كي يجوزوا إلى دار الحرب .

ويشيع ذكر شيوخ ذلك الشجر وبلاؤهم في الجهاد ، وصدقهم مع الله فيتقاطر عليهم الطلّاب من كل مكان ، فلا تمضي مدة وجيزة إلا وقد تحول ذلك الرباط إلى مدينة حربية . قد توافر لها كل مقومات الحياة . هكذا كان منشأ مدينة مجريط بالأندلس المعروفة اليوم بمديريد عاصمة إسبانيا النصرانية ، وقس على ذلك مدينة سالم بالشجر الأعلى ، ومرسية والمرية ، ومدينة جبل طارق ، ومدينة الرباط بالمغرب والقيروان التي أسسها عقبة بن نافع رضي الله عنه .

وعندما تتقدم مثل تلك المدن الثغرية يعين لها قائد عسكري وقاض ، وتقام بها المساجد الجامعة ، والأسواق والمدارس ، والحمامات والمستشفيات ، ويتسكثرون المسلمون ، ويبدأ نور الإسلام يشع على الدنيا مدنية وحضارة .

وتأتي تشريعات الإسلام تحدد طبيعة العلاقات مع الأعداء فالحذر مفروض ، والاستعداد الدؤوب واجب ، وعدم الاتجار مع الأعداء مراعى ، فلا يجوز أن ينقل إليهم شيء من سلاح أو خيل والإقامة بين أظهر المشركين إلا بإذن الإمام محظورة ، وموالاته المشركين محرمة ، وتقليد الكفار والتشبه بهم منهي عنه . ومراعاة ذلك والعمل به جعل الشخصية الإسلامية شخصية مميزة عن غيرها ، مستقلة في حياتها ، مكثفية اكتفاء ذاتيا . لها طابعها الخاص في كل شأن من شؤون حياتها .

فهذه الأمة ذات طابع فريد في الوجود ، فلها رسالتها السماوية الواضحة المعالم ، ذات الغايات والأهداف المحددة . وكل شيء في الحياة مسخر لخدمة هذه الغايات . فما السلم إلا هدنة مسلحة أو اعداد لمعركة قادمة وآدابها آداب راقية وروحها المجد ، وعبرها الخلود ، فالتعبير تعبیر وجداني صادق ، معانيها الرجولة الحقّة والمثل السامية ، والمبادئ الإنسانية النبيلة . فالأدب ابن الحياة ومجمع أفراس الأمة وأتراسها وصوتها المدوي في الحياة . فهو يبعث الإقدام والاستبسال عند اللقاء ، يدفع المرء إلى الشهادة بالكلمات قذائف من لب تحرق الأعداء ، وطائف رحمانى يواسى الجريح ويعزي الفقيء والأسير ، ولهذا كانت الأمم المحاربة من أعظم الأمم والشعوب إنتاجا للأدب الملحمى ، وأكثر الناس شهرة وخلودا .

وسير الأبطال زاد ثقافى يبصر الرجال بعواقب الأمور ، والتاريخ الحربى يحذرهم من أن يكونوا عبرة لغيرهم بدلا من أن يكونوا قدوة لغيرهم ومنارا لأبنائهم وأجيالهم القادمة .

ولهذا كانت أمتنا الإسلامية أغنى الأمم فى تجاربها . لائنها أمة مجاهدة ، والجهاد كما هو معلوم سياحة هذه الأمة فى الأرض ؛ فكم واجهت فى مسيرتها من ظروف قاسية ، وعقبات ومواقف خطيرة لم تكن فى حساباتها وكان لزاما عليها أن تواجهها وتخرج منها .

ومن هنا كانت هذه الأمة عريقة فى تطويع الواقع ، وتذليل الصعوبات ،

وحسم المواقف حسما حميدا . ورغم ذلك كله لم تتخل عن دينها ولم تخضع شريعتها
الغراء لمثل هذه الظروف . ولا شك أن هذا عاد على هذه الامة بوفرة في عظائمها
ورجالاتها الخالدين على مر الايام .

وانعكس ذلك كله على حياة الامة الإسلامية ، وعلى كيانها العقلي والوجداني
فكل قضية تواجهها ينبغي أن تدرس دراسة واعية عميقة ، وتؤخذ على محمل الجد ،
وتوجد لها الحلول العملية . فالجهاد يحرك العقول وينشط الأرواح ، ويقوي
الأجساد ويعد الإنسان للحياة الحرة الكريمة . وأمة هذا شأنها لا تعجز ولا تيأس ،
ولا تقنط بل تواجه قدرها بأمل باسم وصبر جميل وإيمان قوي .

وواضح من كل ما سبق أن للجهاد جذورا حضارية عميقة في البيئة الإسلامية ،
والبيئات غير الإسلامية عن طريق الاحتكاك الحربي والعلاقات السياسية .. فقد
أيقظ الجهاد في الاءم والشعوب القابلية للتحدي ، وإثبات الوجود في معترك الحياة .

وقد أدى ذلك إلى لم شعث الامة بعد فرقة طويلة ، ووجد طاقاتها وجهودها
ووجه هذه الجهود والطاقات نحو الغايات النبيلة ، وقضى على كل عوامل الخور
والضعف والتزلف والانحلال ، وبذلك يكون الجهاد قد اجتث كل السلبات
والمعوقات ، وطهر المجتمعات من كل عوائق التقدم والانطلاق نحو البناء والتعمير .

هذا فضلا عن أن الجهاد قد أكسب هذه الامة دربة في السياسة وخبرة في القيادة
لا غنى عنها لاءمريد أن ينهض بأمتة ووطنه لاعلاء شأن دينه . وكم من أمة

لم تهزم في معاركها وحروبها ، وإنما هزمت من قبل كيد أعدائها ، وتفوقهم عليها في مضمار السياسة وما إلى ذلك .

وتاريخنا الحربي مليء بالعبر ، وهو في الحقيقة مدرسة غنية مآلي بالتجارب التي تصقل الوجدان وتملأ النفس ثقة وأملا في النصر ومن أجل هذا كله ينبغي على هذه الأمة إذا ما أرادت أن تعود إلى سابق عزها وتالذ مجدها - أن تعيد سيرتها الأولى فتعود إلى إحياء مدرسة الجهاد وفتح أبوابها للراغبين في نيل إحدى الحسنين وهذه المدرسة كفيلة بإذن الله أن تحقق لهذه الأمة كل مضامين الخير والحضارة والتقدم الذي تشده وتطلبه .

وها أنتم أولاء ترون كيف تداعت شعوب الأرض على أمة الإسلام ، وكيف غزينا في أعز معاقلنا وفي عقر دارنا ، غزتنا جيوش اليهود والنصارى وعباد البقر والبشر فسلبوا أقصانا أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وأصبحنا غنيمة لاعداء ديننا في الحرب ، وسوق استهلاك في السلم ، وحقل تجارب في العلم ، حتى كدنا نصبح عالة على البشر وكفنا خزيا وعارا أن نكون علما للدول النامية والمتخلفة ، ونحن أهل العلم والمدنية والحضارة .

فها فكرنا جميعا في أن نفر إلى الله ، ونستجيب لدعوة تحيينا وتنجيننا من النار ، وتخلصنا من الذل والعار ، وما أحكم قول نبينا ﷺ ورسولنا ﷺ « إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » .

فجهادنا هو ديننا وذروة سنامه ، وصانع مجدنا ، وموجد حضارتنا ،
وباني عزنا ، وغاسل عارنا .. اللهم ردنا إلى ديننا ردا جميلا ، وهيء لنا من
أمرنا رشدا ، واجعل لنا بعد عمرنا هذا يسرا ، ومن هذا الضيق فرجا ومخرجا ..
وما ذلك على الله بعزيز .

